

محاولة للفهم

أوجاع المسنين.. والوعي المفقود!

رياض سيف النصر

استكمل الطبيب الكبير المعلومات التي تساعد علي تشخيص حالتي المرضية، بدءاً من تاريخ ميلادي والجراحات السابقة التي أجريتها والأدوية التي أتعاطاها، وليس انتهاء بالغذاء الذي أتناوله، ثم وضع القلم علي الأجندة التي سجل بها تلك البيانات:

وسألني عن شكواي التي جئت من أجلها إلي عيادته، أفضت في الحديث عن الأوجاع التي أعاني منها.. وتحرمني من النوم.. ولجأت إليه من أجل علاجها.

استمع الطبيب إلي حديثي باهتمام شديد.. ثم سألني:

* عمر حضرتك كام سنة؟

أدركت فحوي السؤال، الذي طالما يتكرر من الآخرين.. وإن كانت مفاجأتي أنه يجئ علي لسان طبيب مرموق، خاصة أنه لم يكن بحاجة إلي توصية والبيانات التي حصل عليها مني تتضمن الإجابة، وهو ما تجاهلته.. وأجبتة عن سؤاله.. وكأنني لا أعرف مغزاه.. وعلق:

* طيب احنا كده كويسين قوي؟!

أمر عادي أن يتلقي كبار السن، من البعض هذا السؤال، وكأنهم يطلبون منهم أن يتحملوا الألم ويتوقفوا عن الشكوي، لأن من في مثل أعمارهم غادروا دنيانا.

يتجاهل هؤلاء حقيقة ان الذين يمتد بهم العمر، لا يأخذون من الآخرين أعمارهم، وينسون ان العجلة تدور، وان المسن الذي يسأله.. كان ذات يوم طفلاً صغيراً.. ثم شاباً يافعاً، وأخيراً مسن، وأنهم سيمرون بتلك المراحل، وسيدركون مدي فسوة السؤال.. عندما يوجه إليهم من الأصغر سناً.

يرجع البعض الأمر، إلي غياب ثقافة التعامل مع المسنين في المجتمع المصري، علي عكس المجتمعات المتقدمة التي تنشر تلك الثقافة وتدعمها بين مواطنيها منذ الطفولة.

والمشكلة تتعقد، عندما تغيب تلك الثقافة، عن الأطباء.. وطبيبي الكبير واحد منهم.

واصلت حوارتي معه، وذكرته بأن الشباب أكثر قدرة علي تحمل الآلام وعلاجها بوسائل متوارثة.. ولذلك لا يلجأون إلي الأطباء إلا فيما ندر.

ومع مرور الزمن وكبر السن تقل قدرتهم علي تحمل الألم.. فيلجأون إلي الأطباء لعلاجهم وبذلك تعمل العيادات بكل طاقاتها، ويضطر المسن أن ينتظر دوره كما حدث معي هذا المساء.. بالرغم من أنني حجزت موعداً قبل أسبوع، ونحدد الموعد ورغم ذلك طال انتظاري، وباليه كان الانتظار مجدداً!

قررت أن أتوجه إلي عيادة طبيب أقل شهرة.. وأكثر شباباً.. وأطلعته علي "روشتة" الطبيب الكبير، الذي أفاض الشاب في الحديث عن علمه، وأنه معلم أجيال، وحاول اقناعي انني لست مريضاً، وأنه ينصحني بالرياضة.. وتغيير أسلوب الغذاء.. وبعد صمت طويل.. نصحتني أن أؤجل "روشتة" أستاذة، واستبدالها بأدوية أخرى وصفها، وبالفعل كانت النتيجة رائعة.. أغنتني عن استخدام الأدوية التي طلبها الطبيب الكبير. غياب الوعي برعاية المسنين وعلاجهم، لا يقتصر فقط علي المواطنين.. إنما أيضا يغيب عن العديد من الأطباء.. من بينهم من حظي بشهرة واسعة في نطاق تخصصه.

ومسئولية نشر تلك الثقافة الغائبة لا تتحملها الحكومة وحدها.. وإنما تشاركها في المسئولية، منظمات المجتمع المدني.. والإعلام بكل تخصصاته، والكتاب الذين ينشرون تلك الثقافة من خلال مؤلفاتهم. والمدارس بجميع مراحلها، لغرس قيم احترام الكبار في عقول الأطفال منذ نعومة أظافرهم، والجامعات التي يجب أن تخصص أقساما خاصة بطب المسنين.. وتجرى الأبحاث العلمية في مجالات رعايتهم. والحقيقة المؤسفة أنه من بين 26 جامعة في مصر، لا يوجد سوى قسم واحد للمسنين في جامعة عين شمس. يلعب دوراً بارزاً في مجال الحفاظ علي صحتهم.. وعلاج المسن المعاق، ويتابع أحدث البحوث التي تجري في جامعات العالم.

كما تكاد قضايا المسنين تغيب عن معظم تجمعاتنا الثقافية والعلمية.. ومن النادر أن تقام ندوات تناقش أبعاد تلك القضية.

كما أن مراكز البحوث الاجتماعية، لا تكاد تشغل بتوفير المعلومات الحديثة عن أوضاع المسنين في مصر، وإن كان الاهتمام بالمعلومات بدأ بالفعل علي استحياء، والأمل أن يتضاعف لأنه بلا معلومات صحيحة يصعب التعامل مع تلك المشكلة.

لذلك سعدت بمبادرة "الصالون الثقافي" للدكتور أحمد جمال الدين موسى، وزير التربية والتعليم ووزير التعليم العالي الأسبق، باختيار قضية "طب ورعاية المسنين" للمناقشة خلال اللقاء الشهري الثاني والعشرين.

وجاء اختيار كل من الدكتورة سارة أحمد حمزة أستاذ طب المسنين بجامعة عين شمس، ومستشار منظمة الصحة العالمية في التخصص، والدكتورة عزة عبدالكريم أستاذ علم النفس بأداب القاهرة والمتخصصة في علم نفس المسنين، وأدارت اللقاء باقتدار الدكتورة سهير لطفي الرئيس الأسبق للمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجناية، التي أضافت للقضية المثارة أبعاداً اجتماعية يصعب تجاهلها.

ولتذكرنا بالخلوق الدكتور أحمد خليفة الذي اقترنا منه في الستينيات من القرن الماضي، والرائد الدكتور سيد عويس وغيره من قيادات تلك المؤسسة الرائعة التي كشفت أبحاثها عن جذور المشاكل الاجتماعية التي كانت خافية علي المصريين وحتى النخب المشغولة بالثقافة والسياسة.

وكان لابد من تفسير تأخر مصر في الاهتمام بطب المسنين، والذي اتفق المشاركون في اللقاء علي أنه يرجع إلي أن الأعمار في مصر لم تكن تتجاوز الستين، ولذلك كان الاهتمام بالتخصص ضعيفاً، والصحوة الآن ترجع إلي تجاوز هذه السن.

أفاضت الدكتورة عزة عبدالكريم في تحديد مفهوم المسنين، وإن كانت لا ترضي عن تلك التسمية ولا عن لفظ "الشيخوخة" الذي التصق بكبار السن، وضرورة تغيير نظرة المجتمع لهم، حتي لا يكونوا عبئاً عليه، وكشفت الدكتورة سارة أحمد حمزة، عن حقيقة مازالت غائبة عن الذين يتعاملون مع الكبار، وهي أن الشيخوخة ليست مرضاً ولكنها مجرد مرحلة عمرية، وإن كان تقدم العمر يعطي فرصة للإصابة بالأمراض التي يجب علاجها.

وأشارت إلي أن الاحصائيات تشير إلي أن نسبة المسنين في مصر 6.9% وهي نسبة معقولة، وإن كانت قابلة للزيادة، ومن المتوقع أن تصل نسبتهم في بعض البلاد عام 2050 ما بين 20، 25% بسبب تقدم أساليب العلاج ووصفت الكبر واعتباره مسئولاً عن الأمراض، أنه "المتهم البرئ"، وأنه لا يعيق الأفراد عن ممارسة مسئوليات حياتهم الطبيعية.

والحقيقة ان المعلومات التي قدمتها الدكتورة سارة تحتاج أكثر من مقال، خاصة فيما يتعلق بالأساليب التي يجب أن يوفرها المجتمع لينعم الشيخ بجودة الحياة، وإن طب المسنين يعتبر من فروع الطب له رسالة إنسانية يجب أن يؤديها.

وليس غريباً أن تكون الدكتورة سارة، ابنة الدكتور أحمد حمزة الرئيس الأسبق لجامعة المنصورة، التي ترك بصمات واضحة في تطوير الأداء، واستكمل من جاءوا بعده الرسالة حتي أصبحت جامعة المنصورة منارة علمية بين الجامعات العربية.

ويحسب للدكتور أحمد جمال الدين والمستشارة أماني البغدادي، العرض علي استمرار الصالون الثقافي الذي يضم نخبة من الوزراء والمتقنين والخبراء ويناقش القضايا محل اهتمام المصريين.